مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
Journal Vol 08, N° 01, March 2020, Version N°29, pp 107-130

تاريخ الإرسال (2019/11/08) تاريخ قبول النشر (2020/02/25)

البعد النفسي في خمريات الأخطل

الدكتور: عبد الحليم محمد عبد الله
كلية العلوم الإسلامية في جامعة ماردين أرتقلو . تركيا

ملخص:

كان شرب الخمرة عند الشعراء الجاهليين والسعي إليها والإنفاق فيها بابًا من أبواب الفخر، وجَعَلَها بعضُهم سببًا من أسباب التّشبّث بالحياة؛ إذ كانت الخمرة مباحة وعنوانَ الرجولة والكرم، وانتثرت خمريّاتهم في ثنايا فخرهم، ولم يُمتدح أحد منهم مثلما أُمتُدِحَ الأعشى في شربه الخمرة وطلبه لها، غير أنّ الأمور اختلفت في العصر الإسلامي، وصارت المجاهرة بشرب الخمرة معصية تقابل بالرفض والاستهجان؛ وهنا وجد الأخطل في الخمريات فرصة شعرية فريدة يقول فيها ما يشاء، فيعلو بها على صاحبيه: (الفرزدق وجرير) ، وفي الثلاثة قول مشهور غدا مضرب مثل فيهم؛ إذ قيل: "أما جرير فيغرف من بحر، وأما الفرزدق فينحت من صخر، وأما الأخطل فيجيد المدح وصفة الخمر"[1]. يذهب هذا البحث إلى أنّ خمريات الأخطل تتصل ببعدٍ نفسي في شخصية الشاعر، وهي أنّ الأخطل لمّا غُلب في الأغراض الأخرى أمام صاحبيه ذهب يبحث عن غرض يبرز فيه ولا يستطيعان مجاراته فيه، وتمثّل هذا

الغرض في الخمريات، فضلا عن دلالتها على حبّه المرأة وتشبّثه بالحياة، ونوعا من الثورة ضد السلطة.

كلمات مفتاحية: سرد - مفارقة زمنية - استرجاع - استباق - نظام زمني.

Psychological dimension in the wine poetry of Al-Akhtal

Abstract:

Drinking wine in pre-Islamic poetry was a source of pride for poets, this is besides seeking it and spending money on it, to some it was one of the reasons that makes life worthwhile. It was permissible and seen as a reflection of manhood and generosity. Bacchic Poetry was spread throughout their poems with a sense of pride, and none was praised as much as Al-A‘sha for seeking wine and drinking it. However, things were to change with the rise of Islam, when openly drinking was frowned upon as it was a sin. Thus it was rejected and seen as being discourteous. Al-Akhtal found this to be a unique poetic opportunity – namely Bacchic Poetry - in which he would say whatever he wishes and supersede his peers, Al-Farazadeq and Jarir. Critics of those three contemporary poets would say that"Jarir emanates from the ocean, whilst al-Farazdaq engraves rocks, on the other hand Al-Akhtal possesses the finest depictions of wine and donkeys".This paper illustrates that the wine poetry of Al-Akhtal is related to a psychological dimension in the personality of the poet. This is due to the fact that he was defeated on all other fronts by his peers, he starts looking for an niche were he would stand out and his peers would not be able to compete with him, this is named as Khamriyyat or Bacchic Poetry.

Key Words:

Al-Akhtal, Khamriyyat, Umayyad Period, Deficiency and compensation in literature.

1. الأخطل (19 - 90 هـ = 640 - 708 م)

غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو، من بني تغلب، أبو مالك: شاعر، مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر من مدح ملوكهم.

وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل زمنهم: جرير، والفرزدق، والأخطل. نشأ على المسيحية، في أطراف الحيرة (بالعراق) واتصل بالأمويين فكان شاعرهم، وتهاجى مع جرير والفرزدق، فتناقل الرواة شعره. وكان معجبا بأدبه، تيّاها، كثير العناية بشعره.[2]

والأخطل لقب اشتُهِرَ به، وقيل إنّه لُقِّبَ بالأخطل لأنّه هجا – وهو صبي - رجلا من قومه، فَقَالَ لَهُ: يَا غُلَام إنك لأخطل - والأخطل السَّفِيه- فغلبت عليه، وقيل: لخطل في لسانه وثقل في كلامه،[3] وقَالَ ابْن قُتَيْبَة فِي أدب الْكَاتِب: وَسمي الأخطل من الخطل وَهُوَ استرخاء الْأُذُنَيْنِ وقَالَ شَارِحه ابْن السَّيِّد: لَا أعلم أحدًا ذكر أَن الأخطل كَانَ طَوِيل الْأُذُنَيْنِ مسترخيهما، وَالْمَعْرُوف أَنه لُقِّبَ بالأخطل لبذاءته وسلاطه لِسَانه.[4] وظل الأخطل على النصرانية طوال حياته، فلم يتأثر بما بذل وجوه بني أمية من جهود لإدخاله في الإسلام.[5]

1.1. آراء النقاد فيه:

قيل في الأخطل غيرُ قول، ووُصِفَ بغير صفة، ولا خلاف بين النقاد على أنه وصاحبيه أشعر أهل عصرهم، لكن الخلاف فيمن هو أشعر الثلاثة؟ فعلى حين أنّ بعضهم فضَّل الأخطل على صاحبيه، فضّل آخرون صاحبيه عليه فيما عدا وصف الخمرة، إذ حاز قصب السبق في هذا بلا منازع، ولعل المرحوم الهاشمي لخص فأنصف بجملة واحدة، إذ قال: "اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشأوا في ملك الإسلام أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل، وإنما اختلفوا في أيّهم أشعر؟ ولكل هوى وميل في تقديم صاحبه، فمن كان هواه في...وصف الخمر واجتماع الندمان عليها، حكم للأخطل."[6] وهذا أمر أكيد لأنّ الأخطل نصراني يعاقر الخمر، وهذا " موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدق يلمّان به، لتحريم الإسلام للخمر، وكان الأخطل نصرانيا، فانفرد بهذا الموضوع في شعره."[7] وَ"لم يَقع إجماعٌ على أحدهم أنه أفضلهم وَلكُل وَاحِد مِنْهُم عصبَة تفضله على الْجَمَاعَة، وَقَالَ أَبُو عَمْرو لَو أدْرك الأخطل يَوْمًا وَاحِدًا من الْجَاهِلِيَّة مَا قدمت عَلَيْهِ أحدا"[8]؛ لكنّ الإجماع على أن الأخطل أكثر من وصف الخمرة وكل ما يتصل بها؛ ولنا أن نستأنس أمام القارئ بهذه القصة؛ إذ رُوِيَ أنه "قال هشام بن عبدالملك لشبة بن عقال، وعنده جرير والفرزدق والأخطل، وهو يومئذ أمير: ألا تخبرني عن هؤلاء الذين مزّقوا أعراضهم، وهتكوا أستارهم، وأغاروا بين عشائرهم في غير خير ولا برّ ولا نفع، أيّهم أشعر؟ قال شبّة: أما جرير فيغرف من بحر، وأما الفرزدق

فينحت من صخر، وأما الأخطل فيجيد المدح وصفة[9] الخمر"[10] ومن هذا القول يتبدّى لنا حُكمٌ جديد في الأخطل، فهو إلى جانب إجادته في وصف الخمرة إجادته المديح، وقد اشتُهِرَ أنّ خلفاء بني أمية كانوا قد قرّبوه، ومدحهم، ووصلوه بأعطياتهم، وقد أثبت هاتين الصفتين فيه عدوه اللدود جرير، فقد روى ابن سلام الجمحي في كتابه عكرمة بن جرير سأل أباه جريرا أن: "من أشعر الناس؟ ...قال: الفرزدق نبعة الشعر في يده، قلت: فالأخطل؟ قال: يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر، قلت: فما تركت لنفسك؟ قال: دعني فإني نحرت الشعر نحرًا."[11] وَ"كَانَ أَبُو نواس يُعجبهُ شعر النَّابِغَة ويفضله على زُهَيْر تَفْضِيلًا شَدِيدا ثمَّ يَقُول الْأَعْشَى لَيْسَ مثلهمَا وَكَانَ يتعصب لجرير على الفرزدق...فَقيل لَهُ فَمَا تَقول فِي الأخطل قال: إمامي فِي الْخمر، فَقيل: الفرزدق قال: ذَاك الْأَب الْأَكْبَر"[12]

1.2. الخمريات في شعر الأخطل

أسهم الانفتاح الواسع الذي شهده العصر الأمويّ، والتبدّلات التي طرأت على الحياة الاجتماعية في ظهور مجالس الخمر، التي شكّلت ملاذًا لمن تكاثرت عليه هموم الحياة، وعجز عن بلوغ غاياته، فاتّخذ من هذه المجالس ووصفها فنيًّا أداة تعويض تنقله إلى عالم طافح باللذات والأحلام، وتساعده على الإفصاح عن المسكوت عنه في المجتمع، ساعدهم على ذلك تساهُل الأمويين في الأمور التي لا تتعلّق بالسياسة، حيث ذهب بعض المؤرّخين إلى أن الأمويّين لجأوا إلى فصل الدين عن السياسة: "مع أهل الذمة من النصارى واليهود فقد كفلوا لهم الحرية الدينية والاجتماعية، وأنشأوا منصبا خاصّا لإدارة شؤون أهل الذمة عرف صاحبه بالقومس"[13]

لأنّ مجالس الخمرة لا تخلو من بعض التجارب الإنسانية الذاتية؛ فهي تبوح بمعاناة الإنسان الأمويّ وحالة اغترابه التي يعاني منها، والتي تجلّت في أمور عديدة منها: الرغبة في مخاطبة السّلطة، والتعصّب العرقيّ، وظهور العصبية القبليّة والأحزاب السياسية التي غذّاها الخلفاء الأمويون دعمًا لحكمهم ولصرف أنظار العامة عن شرعية حكمهم، والضغط الذي تمارسه السّلطة الأموية على الناس من

خلال الاعتماد على بعض الفئات الموالية وإقصاء من لا يتوافق معهم، إضافة إلى المرأة والحرمان من وصالها والحديث عنها ومعها في مجتمع إسلاميّ له قيود صارمة على علاقة الرجل بالمرأة، ممّا جعل بعض الشعراء يتّخذ من تلك وسيلة لتخفيف غربتهم الاجتماعية التي نتجت عن عدم توافقهم وانسجامهم مع المجتمع المحيط الذي ينتمون إليه اجتماعيًا وفكريًا، ففي هذا العالم وحده يستطيع الإنسان أن يحلّق في الخيال، ويحقّق من خلاله كلّ ما عجز عن تحقيقه على أرض الواقع.

و إذا ما رجعنا إلى أقوال النقاد السابق ذكرها في الأخطل وجدنا لهم فيه حكما عاما توافقوا عليه؛ ألا وهو تفوّقه في وصف الخمرة وإكثاره فيها؛ إذًا أفاد الأخطل في خمرياته من تلك القوانين التي سنّتها الدولة، فقال ما قال؛ ولكن هل لذاك دلالة؟ أرى أنّ خمرياته لما وصلت من الكثرة إلى حد الظاهرة، وفي هذه الظاهرة دلالة واضحة أو دلالة تحتاج إلى تفسير.

أمّا الأخطل فكأني به قد تقدّم به العمر أمام خصمينِ فتيينِ أقل ما قيل فيهما أن أحدهما يغرف من بحر والآخر ينحت من صخر، وهو الذي يكبرهما بعقدين من الزمن ولم يُقل فيه ما قيل فيهما في وقت رحل الشباب وحلّ المشيب؛ بما يرافق ذلك الرحيل من مشاعر التشبّث بالحياة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فضلا عن محاولات إثبات الذّات، وتحقيق الأنا، أمام منافسيه (جرير والفرزدق) والحفاظ على مكانته شاعرًا للبلاط الأموي، فلم يدّخر لذلك وسعا، حتى وإن جاهر في بعض أشعاره بمخالفته لقيم المجتمع الذي يعيش فيه أو مخالفته للقيم الإسلاميّة، والدليل على ذلك أنّ عبد الملك بن مروان عرض الإسلام على الأخطل، فقال: يا أمير المؤمنين إنّي مشغوفٌ بالخمر، أفرأيت إن أسلمت تدعني وشربها؟ قال: لا يا أخطل، لا أحلّ لك ما حرّم الله عليك، وإن أسلمت ثمّ شربتها حددتك، قال: لا حاجة لي في الإسلام، ودين آبائي أحبّ إليّ، فقال عبد الملك: وما تبلغ الخمر منك؟ قال:[14]

فلستُ بصائمٍ رمضان طوعًا	ولستُ بآكلٍ لحم الأضاحي
ولكنّي سأشربها شمولًا	وأسجد عند منبلج الصّباح

فلو لم يكن خلفاء بني أميّة قد صدر عنهم ما يشي بتساهلهم في بعض الحدود هل كان الأخطل يجرؤ على مناقشة الخليفة في حدّ من الحدود؟ أو المجاهرة والتباهي بما يعتبر معصية في مجتمع ذي طابع إسلاميّ؟

وتعبّر أشعار الأخطل في مواضع كثيرة عن النزوع إلى الماضي ورفض للواقع، وتجلّى ذلك في وصف الكرم في تقديم الخمرة، وإكرام الضيف والنديم، ومصاحبة الموسيقا لهذه الطقوس، وغناء المغنين، كل ذلك من أجل تحقيق التوازن مع الواقع ولو كان ذلك عن طريق الفنّ.

وقد لجأ الأخطل إلى الخمر كوسيلة للتخلص من القلق والخوف، فمن خلالها يستطيع تحقيق رغباته في مخاطبة السّلطة ورفض بعض ما سنّته من قوانين كما أسلفنا، وقد يعبّر في بعض أشعاره عن حلم سياسي حُرم من التفكير به على أرض الواقع، فلجأ إلى الخمر ليحقّق ما تصبو إليه نفسه، يقول:[15]

إذا ما نديمي علّني ثمّ علّني ثلاث زجاجات لهنّ هديرُ

جعلتُ أجرُّ الذيل مني كأنّني عليك أمير المؤمنين أميرُ

لقد بلغت النشوة منه أن يظنّ نفسه قد وصل إلى عرش الملك، فالخمر تجعله في حالة يصعب وصفها حين طلب منه الخليفة وصف حالة السّكر قال: "أوّله لذّة، وآخره صداع، وبين ذلك حالة لا أصف لك مبلغها، فقال عبد الملك: ما مبلغها؟ قال: لملكك يا أمير المؤمنين (عندها) أهون من شسع نعلي".[16] فهل كان يجرؤ على قول كهذا لولا الخمر التي تهب العذر لصاحبها في أقواله وأفعاله؟ .

ودخل الأخطل على عبد الملك وهو سكران، فقال: ما هذا يا أبا مالك فقال:[17]

إذا شرب الفتى منها ثلاثًا بغير الماء حاول أن يطولا

مشى قرشيَّة لا عيب فيها وأرخى من بنائقه فضولا"

وإن كان الأخطل مجيدا في وصف الخمر ومجالسها، غير أنه جرى في ذلك على سنن شعراء الجاهليّة وظلّت ألفاظُه ومعانيه وصورُه متكررةً، أو تمّت إلى خمريات البادية بصلات وطيدة، كما يرى الدكتور طه حسين ويقول: "إنّ الأخطَل على إكثاره في وصف الخمر: لم يكد يتجاوز ما سبقه إليه الأعشى وغيرهُ من شعراء

الجاهليّة، فهو أكثَر في وصف الخمر، ولكنّه لم يخترع شيئا كثيرا"[18]. ويؤكد حنّا الفاخوري هذا، إذ يقول: "وقد حفل ديوانه بالشّعر الخمري، إلاّ أنّه لم يأتِ مستقلّا، بل دُسَّ في قصائد المدح والهجاء...وعني الأخطل في شعره الخمري بالإكثار من الصفات، كما عُني بتتبع معاني من سبقه والأخذ بها، وتوسيعها في غير جدة، وهمه الأكبر أن ينقل بطريقة محسوسة لا أن يُعالج الخوالج النفسية، همّه أن يتكلّم على الخمرة، وأن يقول كل ما يعرف عنها، لا أن يقيم الصلة العميقة بينها وبين نفسه، همّه أن يُكثر من القول والتشبيه والتصوير والقصص والمغاليات الساذجة بحيث يتفوق على غيره في مادة التفصيل والتجزيء في كمية ما يُقال".[19]

2. فخره بالخمرة

كان الأخطل كثير الفخر بالخمرة وشربه إياها، ولم يفتأ يتباهى بإظهار حبّه لها، ولم يقبل لوم اللائمين فيها، بل طلب منهم العكس؛ أن يدعوه وشأنّه فيها، فهي لذة الفتى إن كان ضيفا أو مُضيّفًا؛ إذ يقول:[20]

ألا لا تلوميني على الخَمْرِ عاذِلا ولا تهلكيني، إنَّ في الدهرِ قاتِلا
ذريني فإنَّ الخمْرَ مِنْ لذَّة ِ الفتى ولوْكنتُ موغولًا عليَّ وواغلا
وإني لشرابُ الخمور معدّلٌ إذا هَرَّتِ الكأسُ الرِّخامَ التَّنابِلا

ومن ذلك فخره بها في إحدى منافراته مع جرير؛ حينما ذهب إلى أنّ الخمرة شراب الأكاسرة والأباطرة والملوك؛ إذ يقول:[21]

تَعيبُ الخَمرَ وَهِيَ شَرابُ كِسرى وَيَشرَبُ قَومُكَ العَجَبَ العَجيبا
مَنِيُّ العَبدِ عَبدِ بَني سُواجٍ أَحَقُّ مِنَ المُدامَةِ أَن تَعيبا

ويظهر تقديره الشديد لها وإعجابه بها من خلال وصفه لها؛ فهي كالورد لا يتعاطاه الجبناء؛ إذ يقول:[22]

وَمُترَعَةٍ كَأَنَّ الوَردَ فيها كَواكِبُ لَيلَةٍ فَقَدَت غَماما
سَقَيتُ بِها عُمارَةَ أَو سَقاني إِذا ما الجِبسُ عَن ضَيفَيهِ ناما

2.1. أسماء الخمر في شعر الأخطل

للخمرة في العربية أسماء متعدّدة، أحدها اسم جامع والباقي صفات، قال الثعالبي في فقه اللغة: "الخمر اسم جامع وأكثر ما سواه صفات، الشمول، والمشمولة، والرحيق، والخندريس، والحميا، والعقار، والقرقف، والخرطوم، والراح، والمدامة، والقهوة، والسلاف، والطلاء، والكميت، والصهباء، والباذق."[23]

واللافت للانتباه في شعر الأخطل أنّه قد أتى على أغلب هذه الصفات، فسمّاها باسمها الجامع، ومن ذلك افتخاره بالخمرة في هجائه جريرا، إذ قال:[24]

وماء تصبح القلصات منه   كخمر براق قد فرط الأجونا

وخمرة من جبال الروم جاء بها   ذو حانة تاجر أعظم بها حانا

وسمّاها بصفاتها في موضع آخر فقال الراح والشمول، واصفًا نديمه الشّاب الذي يشاركه الشّرب والذي لا يكتمل المجلس من دونه، فقال:[25]

وشارِبٍ مُرْبِحٍ بالكَأسِ نادَمَني   لا بالحَصُورِ ولا فِيها بسَوَّارِ

نازعتهُ طيبَ الراحِ الشمولِ وقد   صاحَ الدجاجُ وحانتْ وقعةُ الساري

يصف الأخطل النديم الذي يعتبره مصدر ربح له، كما أن الأخلاق التي يتّسم بها تجعله لا يشعر بالندم على وجوده في المجلس، فهو خبير بالطريقة التي يجب أن يتصرّف بها قبل شرب الخمرة وبعدها، كما أنه يبذل وسعه ليستمرّ مجلس الخمر، وهذه الصفة من أهمّ الصفات التي يجب أن يتحلّى بها النديم؛ لذلك نراه يستمرّ بشرب الخمر حتى طلوع الصبح الذي يؤذن بنهاية المجلس، وكأنه رمز للبذل في حرصه على ديمومة المجلس الذي يشكل الزمن عامل تهديد له.

وسمّاها الخرطوم في موضع ثالث؛ إذ قال:[26]

جادَت بِها مِن ذَواتِ القارِ مُترَعَةٌ   كَلفاءُ يَنحَتُّ عَن خُرطومِها المَدَرُ

وسمّاها العقار في موضع رابع؛ إذ قال:[27]

فصبوا عقارًا في إناءٍ كأنّها   إذا لمحوها جُذْوَةٌ تتأَكّلُ

تَدِبُّ دبيبًا في العِظامِ كأنّهُ   دبيبُ نمالٍ في نقًا يتهيلُ

وسمّاها الكميت في موضع خامس؛ إذ قال:[28]

علّلاني بشربة من كميت　　　نعمت النيم في شبا الزمهرير

من سلاف أجادها طابخاها　　　لم تمت كل موتها في القدور

وسمّاها القهوة في موضع سادس؛ إذ قال:[29]

أعاذلَ ما عليكِ بأنْ تريني　　　أُباكِرُ قَهْوَةً فيها احْمرارُ

وسمّاها الصهباء والخرطوم في موضع سابع في قوله:[30]

ولقد تباكرُني على لذاتها　　　صَهْباءُ عاريَةُ القذى خُرْطومُ

فالخمرة هنا تكشف عن مفاتنها كما تفعل أيّ أنثى، حيث تجرّدت من كلّ رداء يسترها، فكان اللون الأحمر وسيلة للفت انتباه الشاربين، ليقفوا أمام جسدها العاري النقيّ المشرق، مما يجعلها تذهب بألبابهم، وتزيد من تعلّقهم بها، كما أنه اختار للخمر الخرطوم ليصور قدرتها العظيمة على الإغراء.

وسمّاها الراح في موضع ثامن؛ إذ قال:[31]

راحٌ تَعارَفَ فيها مَعشَرٌ شُطُرٌ　　　ما بَينَهُم غَيرَها إِلٌّ وَلا نَسَبُ

وسمّاها السلاف والصهباء والقرقف والقهوة والراح في موضع تاسع؛ إذ قال:[32]

تَشْفي الضَّجيعَ إذا أرادَ عِناقَها　　　بمقبلٍ عذبِ المذاقِ زلالِ

شَبِمٍ كأنَّ الثَّلْجَ شابَ رُضابَهُ　　　بسُلافِ خالِصَةٍ مِنَ الجِرْيالِ

صَهْباءَ صافيَةٍ تنَزَّلَ تَجْرُها　　　ببلادِ صَرْخَدَ مِنْ رؤوسِ جِبالِ

من قرقفِ الزرَجونِ فتَّ ختامها　　　فالدَّنُّ بين حَنابِجٍ وقِلالِ

مِنْ قَهْوَةٍ نَفَحَتْ كأنَّ سَطيعَها　　　مسكٌ تضوعَ في غداةِ شمالِ

أو راحَ ذي نطفٍ يظل متوجًا　　　للشربِ أصهبَ قالصِ السربالِ

فالأخطل لا يفتأ يشبّه الخمر بالأنثى المشتهاة فنراه يصف ثغر المحبوبة العذب، حيث يشوب ريق المحبوبة خمر تجعله أكثر اشتهاء لتقبيلها، وهو تشبيه استخدمه الشعراء في الجاهلية، فثغرها يهب من يقبّله عذوبة وبرودة منعشة،

وتجعله في حالة من الصفاء والإشراق، ومن ثمّ يتحدث عن منبتها وأصلها ويطلق عليها صفات إنسانية تعلي من شأنها وهي تمتلكه وتؤثر فيه وتخضعه وتجعله في حالة نشوة، ويصف مظاهر الترف المرافقة لمجلسه الخمري والكأس المزدانة باللؤلؤ، هذه التفاصيل التي تحفّ مجلسه وتكوّن إطارًا جميلًا لوصال المرأة التي يحبّها ولو في عالم الخيال في عصر احتجبت فيه المرأة عن الرجل امتثالًا لأوامر الدين الإسلاميّ.

2.2. وصف الخمرة

إذا تأملت في وصف الأخطل للخمرة وجدته أقرب إلى الغزل والفخر منه إلى الوصف؛ فهو يعلي شأنها، ويمجّد ذكرها، وكأنّها حبيب ومعشوق يلّتذ به، ويسرح بخيالاته معه، فينتشي؛ إذ يقول:[33]

فلذت لمرتاحٍ وطابتْ لشاربٍ وراجَعَني مِنها مِراحٌ وأخْيَلُ

فما لبِثْنا نَشوَة لحقَتْ بنا تَوابِعُها مِمّا نُعَلُّ ونُنْهَلُ

فقلتُ اقتلوها عنكمُ بمزاجها فأطيِبْ بها مَقتولةً حينَ تُقتَلُ

فالشاربون استطاعوا بلوغ اللّذة التي يبتغونها من خلال شربهم الخمرة، لكننا في نهاية المجلس نلمح خاتمة محزنة تتجلّى في قسوة معاملة السّاقين، من خلال قتل من لا ذنب له وذلك من خلال إزالة حدّة الخمر، ليتغلّب عليها ويستطيع شربها، وهذا المزج يخفّف من حدّتها وسلطانها، ونرى الأخطل حريصا على ألّا تزول نشوته سريعًا لذا يطلب من الساقين مزجها بالماء ممّا يضمن استمرار المجلس الخمريّ وتعاطي الشاربين لها أطول فترة ممكنة.

ولعل غزله بالخمرة يتضح أكثر فأكثر من خلال الأبيات الآتية؛ إذ يصفها بالصهباء ثم بالعذراء التي يجتلِ الخُطّاب عذريتها وتفوح عليه برائحة المسك؛ إذ يقول:[34]

صَهْباءَ قد كَلِفَتْ من طولِ ما حُبستْ في مُخدَعٍ بَينَ جَنّاتٍ وأنْهارِ

عـذْراءَ لمْ يجْتَلِ الخُطّابُ بهجَتَها حتى اجْتلاها عِباديٌّ بِدينارِ

لمّا أتوها بِمِصْباحٍ ومِبْزَلِهِمْ سارتْ إليهم سؤورَ الأبجلِ الضاري

يصف الأخطل الخمر وتعلّقه وهيامه بها، ويخلع عليها صفات إنسانية كالصبر على الحبس، والعفّة وكأنها امرأة تتحيّن الفرصة للنيل من مريديها والراغبين بها، من خلال إبداء فتنتها المتجلّية في جاذبيّة لونها الأبيض الصّافي إذ أنها معصورة من عنب أبيض، وهناك أشخاص يحرسونها إمعانًا من الشاعر في تصوير منعتها، ومن شدة لهفته وتعلقه بها عاد إلى تلك المخيّلة البدائية المرتبطة بالحواس، فيصوّر لونها ويغالي في وصفه لها، فهيّ معتّقة، محميّة، ولهذا لا يفرّط بها ويساوم للحصول عليها ما استطاع، ويراها كأنثى رفيعة القدر يخشى من تحوّلها إلى شيء يُباع ويُشترى.[35]

تدمى إذا طعنوا فيها بجائفة ... فوقَ الزجاجِ عتيقٌ غيرُ مسطارِ
كأنّما المسكُ نُهْبى بَينَ أرْحُلنا ... مِمّا تَضَوَّعَ مِن ناجودِها الجاري

ويفصلها في موضع آخر فيقول بأنّها ترفع الأرواح، يقول:[36]

سُلافة حصَلَتْ مِن شارِفٍ خَلَقٍ ... كأنّما ثارَ مِنْها أبجَلٌ نَعِرُ
عانية ٍ ترفعُ الأرواحَ نفحتها ... لوْ كان يُشْفى بها الأمواتُ قد نشروا
وقد أحدثُ أرْوى وهي خالية ... فَلا الحديثُ شَفانيها ولا النّظَرُ
لَيسَتْ تُداويكَ مِنْ داء تُخامِرُهُ ... أروى ولا أنتَ مما عندها تقرُ

يريد الأخطل خمرته سلافًا، لم تمسّها يد من قبل، كما أنّ السنوات التي قضتها حبيسة دنّها رفعت من قيمتها لديه وجعلته يسعى إلى تحريرها من سجنها (الشارف) لتكون من نصيبه وحده، وتبدأ السلافة بالتدفّق كالدم الذي يفيض من العرق رافضًا أيّ شيء يتعارض مع حريته ولو كانت مغادرته للحيّز الذي يوجد فيه سببًا لهلاكه، فكانت الخمر كمن تهب نفسها لتحي الموتى، ومن ثمّ ينتقل للمقابلة بين تمنّع الأنثى وجسدها، وسخاء الخمر وكرمها والتي لم تغدر به أو تخون بل كانت بمنتهى الكرم معه، بينما محبوبته تتمنّع عنه ولا تعطيه سؤله؛ لذلك يلجأ إلى الخمرة ليتناسى صدود محبوبته وعجزه عن الوصول إليها.

ويصفها حين تُصبُّ في الكأس بأروع وصف، فكأنّ لونها مخضّب بالدم، وكأنّ الماء حين يُضاف إليها يفضّ عذرتها، وكأنّها تفور وتغلي عندما تصب بالكأس، كالجنادب ينزو بعضها على بعض؛ إذ قال:[37]

كَأَنَّها حينَ تَجلوها بِمَنزِلَةٍ ... مِنَ الدِنانِ عَلى خُطّابِها لَهَبُ
تَرى الزُجاجَ وَلَم يُطمَث يَدورُ بِها ... كَأَنَّهُ مِن دَمِ الأَجوافِ مُختَضِبُ
حَتّى إِذا اِفتَضَّ ماءُ المُزنِ عُذرَتَها ... راحَ الزُجاجُ وَفي أَلوانِهِ صَهَبُ
تَنزو إِذا صَبَّ فيها الماءَ مارِجُها ... نَزوَ الجَنادِبِ مِن رَمضاءَ تَلتَهِبُ

فالخمر قبل أن تمزج بالماء رمز للعذرية التي لا تكتمل صفات الأنثى إلّا بها، وهي دائمًا تظهر عند الأخطل كرمز أنثويّ، يسكب الماء عليها للتخفيف من حدّتها، بالمقابل الماء رمز للبعث والحياة، وهو رمز ذكريّ، ولقاؤه بالخمر لقاء تفاعليّ أشبه ما يكون بالفعل الجنسيّ، والذكر هنا الماء الذي هو رمز الحياة، والأنثى هي الخمرة رمز العذرية والعنفوان، ومزج الخمر بالماء شبيه بعلاقة الإخصاب التي تكسب المجلس ديمومةً واستمرارًا، وهذه الرموز الأنثوية التي يحشدها الأخطل في وصفه للخمرة إنّما هي دليل على توقه للمرأة التي لا يُتاح له وصالها إلّا على أثير النشوة التي تهبها الخمر له في مجتمع إسلاميّ قوامه كبت الشهوات والغرائز المتمثّلة بالخمر والمرأة.

2.3. وصف الآنية

وصف الأخطل القطار الذي أتى بخمرة بيسانية من فلسطين، فالتقاها، وتناولتها الأيدي من يمين وشمال، فشرب منها ولم يعطله عن شربها إلا فواصل من الطعام أو طرب وغناء؛ وتظهر الخمر في هذه الأبيات كنموذج للأنوثة يلجأ إليها الشاعر؛ ليلبّي حاجاته ويهرب من الهمّ والحزن والقلق، إذ قال:[38]

شربتُ ولاقاني لحلِّ أليتي ... قطارٌ تروى من فلسطينَ مثقلُ
فقلتُ: اصبحوني لا أبا لأبيكُمُ ... وما وضعوا الأثقالَ إلا ليفعلوا
وجاؤوا بِبَيسانيّة ٍ هي بعدَما ... يَعُل بها السّاقي ألذُّ وأسهَلُ
تَمُرُّ بها الأيدي سَنيحًا وبارِحًا ... وتوضَعُ باللّهُمّ حيّ وتُحمَلُ
وتُوقَفُ أحيانًا فيَفصِلُ بَينَنا ... غِناءُ مُغَنّ أوْ شِواءٌ مُرَعْبَلُ

يحشد الشاعر في الأبيات السابقة مجموعة من الصّور التي ترمز إلى قوّة الخمر، وقدرتها على إغرائهم إذ جعلته يتحلّل من قسمه في ألا يقربها مدة عشرة أيام، حيث أقسم ألا يشربها حتى يقتل عمير بن الحباب، وفي هذا إشارة إلى قدرة الخمرة على السيطرة على الإنسان وتحكّمها به، وكأن الشاعر يعزو ضعف إيمانه إليها، كما نراه يفصّل في بعض الصور التي تتحدث عن أصل الخمرة ونشأتها، تتناقلها الأيدي من كلّ جهة، يذكرون اسم الله عليها (توضع باللهمّ حيّ) تبريكًا وتقديسًا لها، كما ظهرت مع الخمر لذائذ أخرى تتجلّى في الغناء (غناء مغنّ) وهي صورة حسيّة صوتية ترمز إلى الحرية، وتمتلك القدرة على تفريغ الشحنات المكبوتة في لاشعور الإنسان، مما يساعده على التخفّف ممّا يعانيه من أعباء في حياته، وتترافق معها لذّة الطعام التي تبدو في شواء اللحم، وهذه كلها صور حسيّة قوامها اللون والحركة وتكسب المجلس حيوية وترفًا يعطي صورة جميلة عن مكارم الأخلاق المتمثّلة في كرم الضيافة العربية.

ويصف خمرة أخرى فيقول بأنها مرّ عليها ثلاث سنوات وهي مكمومة بالطين، ومشدودة بالليف والقار حتى إذا ما فتحوها وجدوها نقصت إلى نصفها وكأنما تهدر هديرا؛ إذ يقول:[39]

مِن خَمْرِ عانَةَ ِ يَنْصاعُ الفُراتُ لها بجدولٍ صخبِ الآذي مرارِ

كُمَّتْ ثلاثةَ ِ أحوالٍ بطينها حتى إذا صرَّحَتْ مِنْ بَعْدِ تَهْدارِ

آلَتْ إلى النِّصْفِ مِن كَلْفاء أتْرَعِها عِلْجٌ، وَلَثَّمَها بالجَفْنِ والغارِ

لَيْسَتْ بسَوْداءَ مِن مَيْثاء مُظْلمَةٍ ولم تعذبْ بإدناءٍ من النارِ

لها رِداءانِ: نَسْجُ العَنْكبوتِ وقد حُفّتْ بآخَرَ مِنْ ليفٍ ومِن قارِ

إنّ الطبيعة الأم قد ساعدت الخمر على أن تكون مفاتنها مضاعفة، إذ تشبّعت من مياه الفرات النقيّة، كما يصفها بالقدرة على التحمّل والصّبر على الحبس لتنال وتتمكّن منه في النهاية، ولشدّة تقدير الشاعر للخمرة بدا حريصًا على أنسنتها وأن يجعلها مصونة حين أحاطها بأوراق الكرمة والغار، لتكون بمأمن ممن

يفتنون بها وعصيّة على أيّة يد تمتدّ إليها، وذلك من خلال الأردية التي ترتديها وهي شبكة العنكبوت والزفت وكل ذلك للتأكيد على عفّتها وطهارتها.

ولم ينسَ الأخطل أن يصف زجاجة الخمرة التي تُحفظ فيها، وتُقدّم بها، ثم يعدل عن الزجاجة إلى وصف شارب الخمرة، فيصفه بأنّه كالمصاب بلسانه، وفي ذلك قوله:[40]

وإذا تعاورتِ الأكفّ زجاجها ولهُ بخَيْنَفَ مُنْتأى وتُخومُ

وكأنَّ شاربها أصابَ لسانهُ من داء خيبرَ أو تهامةَ مومُ

ووصف كأس الخمرة بأنّها صافية كعين الديك، وأنّه إنْ شرب ثلاثة منها نسي همّه وعقله؛ إذ قال:[41]

وكأس مثل عين الديك صرف تنسّي الشاربين لها العقولا

إذا شرب الفتى منها ثلاثا بغير الماء حاول أن يطولا

مشى قرشيّة لا شك فيها وأرخى من مآزره الفضولا

فعين الديك توحي بالنقاء والوضوح والكشف، وقد لجأ الأخطل إلى مقابلة الخمرة بالعين؛ ليكشف من خلالها نفوس الشرّاب بوصفها مرآة للنفوس، وربّما أراد الشاعر من خلال هذه الصورة أن يبيّن صفاء خمرته ووضوح كأسه، وأنه كلما أمعن في الشرب ارتقى ووصل إلى مرحلة من الرفعة تجعله جديرًا بالانتساب إلى قريش، إذ ولّد التعصّب العرقيّ كبتًا تراكم في بعض النفوس في عصر بني أميّة، وخيّمت العصبية القبلية على المجتمع الأمويّ وزاد من حدّتها استعار أوارها الخلفاء الأمويون أنفسهم، إذ عملوا على تغذيتها كأداة من أدوات الحكم.

2.4. وصف الحانة

ذكر الأخطل أنه شرب الخمر في حانوتها؛ ولم يتعدّ وصفه الوصفَ السطحي؛ فذكر أنه كان شرب الخمرة في الحانوت ولعب بها في كل ملعب؛ إذ قال:[42]

بان الشّبابُ ورُبّما عَلّلْتُهُ بالغانياتِ وبالشرابِ الأصهبِ

ولقدْ شربتُ الخمرَ في حانوتها ولعبتُ بالقانياتِ كلّ الملعبِ

2.5. وصف الشَّرْبِ

وصف الأخطل نفسه بأنّه كان عميد الشَّرْبِ عندما كان شابا، وكان يسمع للقيان ويطرب لترجيعهن ويشتهي غزلهنّ واللهو معهنّ؛ إذ قال:[43]

وقد أكونُ عميدَ الشَّرْبِ تُسمِعنا ... بحاءُ تسمعُ في ترجيعها صحلا
من القيانِ هتوفٌ طالَ ما ركدتْ ... بفتيةٍ يشتهونَ اللهو والغزلا
فبان منّي شبابي بعدَ لذتهِ ... كأنّما كان ضَيْفًا نازلًا رَحَلا

يظهر في الأبيات السّابقة حنين الشاعر إلى الشباب وخوفه من الشيخوخة التي تدفع به إلى الإقبال على الملذّات الحسيّة التي تدلُّ على تمسّكه بالحياة، كملجأٍ من الشعور بالعجز أمام الشباب الذي بدأ يغادره ليمشي نحو المصير المعروف، فكانت الخمر واستعادة ذكريات الشباب سلاحه النفسي وملاذه لقهر الموت والشيخوخة؛ لذلك يعكف الأخطل وأصحابه على احتساء الخمرة ولا يقطع شربهم إلا وقت يتوقّفون فيه ليتناولوا الشواء ومن ثمّ يعاودون الكرّة إلى مدامتهم مرّة أخرى؛ إذ قال:[44]

فظَلّتْ مُدامٌ مِنْ سُلافة ِبابلٍ ... تَكُرُّ علَيْهِمْ والشِّواءُ المُلوَّحُ
فلما تروّوا قلتُ قوموا فأسرجوا ... عناجيجكُم قد حانَ منا التروحُ

2.6. وصف النديم

وصف الأخطل من ينادمه في شرب الخمرة، فهو يحتاج إلى النديم بغية المشاركة، وقد صور الأخطل ندمانه في مجالسه الخمرية، وهم فرسان يمتلكون القدرة على تجاوز المتاعب والمشقّات، فاستحقّوا المكافأة بمجلس خمريّ مترف زاخر بمظاهر الكرم، يقول:[45]

وفتيان صدقٍ من عشيري وجوههم ... إذا شفّفتهنّ الهواجر وُضّحُ
رفعت لهم يومًا خباءً تمدّه ... أسنّة أرماحٍ يُسفُّ ويطمحُ
فظلّت مُدامٌ من سلافة بابلٍ ... تكرُّ عليهم، والشّواء الملوّحُ
فلمّا تروّوا قلتُ قوموا فأسرجوا ... عناجيجكم قد حان منّا التروّحُ

فندماؤه فرسان شجعان، حيث تتآلف فيهم القوّتانِ الجسدية والنفسية؛ تجعل منهم فرسانًا يتمتّعون بالقدرة على المواجهة والصمود في وجه الشدائد التي تواجههم في حياتهم، وبالرغم من الصّعاب التي واجهتهم في رحلتهم إلّا أنّهم لم يستسلموا، كما أنّ حفاوة الضّيافة وكرم مضيفهم زادهم قوّة ومنحهم حافزًا ليستمروا في مهمّتهم، وهذا دليل على أنّ الخمرة تكشف معدن الإنسان الحقيقيّ؛ إذ تزيد الضعيف ضعفًا والشّجاع شجاعة، فنرى هذه المجموعة من الفرسان لا تكترث بحلول الليل وتنهض لمتابعة ما خرجت إليه في دلالة واضحة على قوّة الإرادة وثبات العزيمة لديهم، وما إصرار الأخطل على وصف ندمائه ومرافقيه والمرأة والخمرة بالكرم سوى محاولة تكشف عن حالته النفسية المتمثّلة بإثبات التفوّق وعلوّ الشأن وهذا كله محاولة مستميتة من قبله ليجاري أقرانه (جرير والفرزدق) إذ أنه طالما أحسّ بالنقص تجاههم، وسعى دومًا لإيجاد كوّة يجد السّبق من خلالها وقد وجد ضالّته في مجالس الخمر وكلّ ما يمتّ لها بصلة، فنراه يصف مرافقه إلى تجّار الخمرة بأنه كريم جميل الهيئة تستحسنه عيون الحسناوات:[46]

ولقدْ غدوتُ على التجارِ بمسمحٍ ... هرَتْ عواذلُهُ هَرِيرَ الأكْلُبِ

لذّ تقلّبهُ النعيمُ كأنّما ... مسحتْ ترائبهُ بماءٍ مذهبِ

لبّاسِ أرْديَةِ المُلوكِ يَروقُهُ ... مِنْ كلّ مُرْتَقَبٍ عيونُ الرَّبْرَبِ

2.7. وصف الخمار

الخمّار في الحانة كل من كان شغله الخمرة، وله صور متعددة: فصورة الساقي، وصورة التاجر، وصورة صاحب الحانة، وقد جسّد الأخطل مشهد الساقي الذي يزوره الشاعر وندماؤه في كل يوم، فيطلبون إليه أن يعود عليهم بمثل ما قدّمه لهم من قبل؛ إذ يقول:[47]

وقلنا لساقينا: عليكَ، فعدْ بنا ... إلى مثلها بالأمسِ فالعودُ أحمدُ

فجاء بها كأنّما في إنائهِ ... بها الكوْكبُ المِرّيخُ تصفو وتُزْبِدُ

تفوح بماءٍ يشبهُ الطيبَ طيبهُ ... إذا ما تعاطَتْ كأسَها مِنْ يدٍ يَدُ

تميتُ وتحي بعد موتٍ وموتها ... لذيذٌ ومحيَّاها ألذُّ وأحمدُ

ويطلعنا الأخطل على وصف الخمّار من خلال مشهد انتظاره للخمرة التي أتته فأطلع عليها التجار بثمن باهظ؛ إذ يقول:[48]

تواعدَها التجارُ إلى إناها　　　　فأطْلَعَها على العَربِ التّجارُ

فأعْطَيْنا الغلاءَ بها وكانَتْ　　　　نأبَى أوْ يكونَ لها يَسارُ

ويبدو أن الأخطل يُصرّ في أشعاره على أن يجعل الخمرة التي يحتسيها مما يشتريه الخمّار بأغلى الأثمان، وهذا دليل على إصراره أن يثبت التفوّق لنفسه والذي كان شغله الشاغل أمام منافسيه وخصومه إذ يقول:[49]

كأنَّ فأرةَ مِسْكٍ غارَ تاجِرُها　　　　حتى اشتراها بأغلى سِعْرِها التّجِرُ

على مقبلٍ أروى أو مشعشعةٍ　　　　يعلو الزجاجةَ منها كوكبٌ خصرُ

هل تدنيكَ من أروى مقتلة　　　　لا ناكثٌ يشتكي منها ولا زور

كأنها أخدريّ في حلائلهِ لهُ　　　　بكلّ مكانٍ عازبٍ أثرُ

2.8. وصف السكران

خلع الأخطل في الأوصاف التي وصف بها السكران أنّه كالميت؛ وهنا يرسم الأخطل للخمر صورة تتّسم بالقوة والوضوح، متّكئًا على ما يبعثه الموت في نفس الإنسان من قلقٍ واضطراب، حيث لم يخفِ قلقه من الموت الذي يعلم أنه قادم لامحالة، وأمام إدراكه هذا لم يكن لديه سوى اللجوء إلى الخمرة لينسى هواجسه ومخاوفه من الموت والزمن، فإذا ما شربوا ماتوا ميتة جاهلية فلم يحلّلوا ولم يحرّموا، فقال:[50]

شربنا فمتنا ميتةً جاهليةً　　　　مضى أهلُها لمْ يَعْرفوا ما محمّدُ

ثلاثةَ أيّامٍ فلما تنبهت　　　　حشاشاتُ أنفاسٍ أتتنا ترددُ

حَيينا حياة لمْ تكُنْ مِنْ قِيامَةٍ　　　　علينا ولا حشرٌ أتاناهُ موعدُ

حياةَ مِراضٍ حوْلهمْ بعدَما صَحَوا　　　　من الناس شتى عاذلونَ وعودُ

فالموت يغتال الطمأنينة في نفس الإنسان، ويذهب به إلى عالم الغيب الذي يجهله، ولعلّ الشاعر يبحث من خلال الخمرة عن موت أكثر رأفة بالإنسان، وأقلّ

قسوة عليه، أو أنه يرغب بقهر الموت من خلال الإقبال على الملذّات والتزوّد منها قبل أن يباغته الموت.

على أنّ الأخطل ساوى بين الذي يغشاه النعاس فلا يستطيع ردّه وبين الذي ارتوى من الخمرة فلا يتمالك نفسه؛ إذ قال:[51]

رماه الكرى في رأسه فكأنَّه صريع تروَّى بين أصحابه خمرا

ووصف الأخطلُ سكرانا وصل إلى حدّ الثمالة، فلا يقوى على أن يقوم على رجليه، وكأنّهما ليستا منه أو لا أمر له عليهما، فكأنَّ عظامه ومفاصله ماتت، إذ قال:[52]

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليُحنى وقد ماتت عظامٌ ومفصلُ
تهاديه أحيانًا وحينًا تجرُّهُ وما كان إلا بالحشاشةِ يعقِلُ
إذا رفعوا عظمًا تحامل صدرُهُ وآخر مما نال منها مُخبَّلُ

ووصفه في موضع آخر بأنّه صريع لا يقوى على شيء فلا يستطيع أن يزور ولا أن يُزار، إذ قال:[53]

أعاذلَ توشكينَ بأن تريني صريعًا لا أزورُ ولا أُزارُ
إذا خفَقَتْ عليَّ فألبَسَتْني بلامِعِ آلها البيدُ القِفارُ

ومثل ذلك وصفه لشراب الخمرة الذي إذا شربها فأخذت منه مأخذها تمايل حتى كاد ينقلب، فالتمس أصحابه له العذر في ترنّحه؛ إذ ما على شاربها عتب ولا عطب؛ إذ قال:[54]

حَتّى إِذا أَخَذَت مِنهُم مَآخِذَها وَأَنغَضوا الهامَ حَتّى كادَ يَنقَلِبُ
إِذا هَوى بَعضُهُم مِنها لِمَفرِقِهِ قالوا: انتَهِض ما عَلى شَرّيِها عَطَبُ

هذه العلاقة التي تربط الندماء بعضهم بعضًا تنمّ عن المحبّة وعلى حاجة الإنسان للصحبة، فنراهم يبرّرون تصرفات الآخر ولو كانت غير متوازنة، فجميعهم قد خبر الخمرة ووقع تحت سلطانها، وبالرغم من فتكها بهم يتماسكون ويستمرون في ارتشافها ومن نالت منه الخمرة وأردته لا لوم عليه، وهنا تتمثّل العلاقات

الإنسانية في أبهى صورها والمتمثّلة في تقبّل الآخر العاجز المنكسر ومحاولة تشجيعه على النهوض في مجالس تخلو من الخصومات، وتدلّ على رقيّ العلاقة بين الندامى.

3. الخاتمة:

وصف الأخطل الخمرة فأكثر فيها الوصف، ووصف كل ما يتصل بها من الحانة إلى الخمّار إلى جونتها وآنيتها، إلى الندامى والسكارى، وليس هذا فحسب، بل جعلها بابا من أبواب الفخر والهجاء.

ويبدو لي أنّ الأخطل حينما أطنب في وصف الخمور ذهب إلى ميدان لا يُسبَقُ فيه، فصاحباه (جرير والفرزدق) لا يستطيعان مجاراته في هذا الباب الذي اختصّ به دونهما، إذ سمحت له نصرانيته أنّ يعبّ من الخمرة ما يشاء، وأن يقول فيها ما يشاء، حين أحسّ بنقصان شاعريته أمام صاحبيه، فرَكِبَ مُركّب النقص: نقص الشباب والحياة ونقص الشاعرية، وجاء شعره في الخمرة كالتعويض عن ذلك النقص الذي أحسّ به الأخطل، فساعدت الخمرةُ الأخطلَ على الإفصاح عن بعض الرغبات المكبوتة من خلال القدرة على مخاطبة السلطة ومخالفتها في بعض القوانين والشرائع التي سنّتها، كما عبّر الأخطل في أشعاره الخمرية عن توقه إلى المرأة والرّغبة بوصالها في مجتمع يقيّد علاقة الرجل بالمرأة؛ لذا نلمح هذا التوق من خلال الصفات الأنثوية التي يخلعها على الخمرة والتي تدور دومًا في الفلك ذاته (المنبت الأصيل، والكرم والتمرّد وقدرتها على السيطرة والتحكّم) .

كما عبّرت أشعاره عن رفض الواقع من خلال النزوع إلى الماضي والحنين إلى سنن سابقة تتمثّل بالكرم ومصاحبة الموسيقا والغناء لمجالس الخمر المترفة التي تعبّر عن شأن أصحابها الرّفيع وكرم ضيافتهم.

ولا ننسَ أن هذه المجالس قد باحت في كثير من الأحيان بقلق أصحابها من الموت وعامل الزمن الذي يقضّ مضجع من تجاوز سنّ الشباب وبدأ دبيبه نحو الشيخوخة التي تنبئ بانقضاء زمن الملذّات والتهافت عليها، لذا ازداد تمسّكهم بالخمرة التي تهبهم القوة في مواجهة الزمن الذي يحمل لهم الضعف، فكان تمسّكهم بها بمثابة أمل لهم باستمرار الحياة ونسيان بعض القضايا التي تؤرقهم

كقضية النسب والانتماء القبليّ الذي يحدد مكانة الإنسان وأبعاد وجوده في مجتمع بدأت تعود إليه العصبيّة القبليّة التي توارت في ظلّ الإسلام وعادت بقوّة في هذا العصر الذي شكّلت قضيّة الخلافة وشرعيتها والولاءات والانتماءات محور حياة الناس في كثير من الجوانب.

لذا وجدنا الأخطل من خلال خمرياته يركّز على المنبت والأصل الكريم في كلّ التفاصيل التي تشكّل قوام أيّ مجلس خمريّ، وكثيرًا ما بدت الخمر لديه أداةً لحلّ التناقضات الداخلية التي تحتدم في نفسه، وهنا تبرز أهمية الخمر في حياته بوصفها وسيلته إلى الراحة واللّذة وإثبات الوجود، لا سيّما أنّ المكانة التي حظي بها والتي يجاهد للحفاظ عليها أمام شاعرين لم يجد منفذًا يسبقهما فيه سوى هذين العالَمِين: الخمرة والمرأة، بسبب ديانتهما الإسلاميّة التي تحرّم ذلك عليهما، فكانت خمرياته مظهرا من مظاهر التعويض النفسي عن تشبّثه بحياة يراها آفلة وعن شاعرية انحازت إلى صاحبيه جرير والفرزدق، ونوعا من الثورة على السلطة.

مراجع البحث وإحالاته:

---

1 البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين: التذكرة الحمدونية. بيروت: دار صادر(1417هـ). 37/4

2 يُنظر: الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي: الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين(2002). 123/5

3 يُنظر: البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين: التذكرة الحمدونية. بيروت: دار صادر(1417هـ). 373/7

4 يُنظر: البغدادي، عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. تح: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي(1997). 459/1

5 يُنظر: هوتسما، أرنولد وآخرون: موجز دائرة المعارف الإسلامية. إعداد وتحرير/ إبراهيم زكي خورشيد وآخرين، الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري(1998). 538/2

6 الهاشمي أحمد بن إبراهيم: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت. 151/2

7 ضيف شوقي: تاريخ الأدب العربي -العصر الأموي، الناشر: دار المعارف – مصر الطبعة: الأولى، 1960 - 1995 م 2/ 253

8 العباسي أبو الفتح: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: عالم الكتب، د. ت. 273/1

9 لعله تصحيف في قوله (وصفة)، لأن الكلمة مصدر فعل مثال، ومصدر المثال يكون بحذف الفاء مع التعويض عنها بالتاء المربوطة (تاء العوض) وقد يكون بإثبات الفاء ولا حاجة للتعويض، كقولهم: وَعَدَ عِدَةً ووَعْدًا، ووصَفَ صِفةً ووصفًا، ولا يجوز الجمع بين الواو والعوض، ويعبّر اللغويون عن هذا بقولهم: تاء العوض لا تبقى بعد رجوع المعوض. يُنظر: حسن عباس: النحو الوافي، الطبعة الخامسة عشرة، القاهرة: دار المعارف. د. ت

الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة

10 البغدادي، التذكرة الحمدونية 37/4

11 القيرواني الأزدي أبو علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه. تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، الطبعة: الخامسة(1401 هـ - 1981م) 96/1

12 العباسي أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: عالم الكتب – بيروت. 85/1

13 عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي. القاهرة: دار السلام. (1428هـ)، ص: 350

14 السكري، أبو سعيد: شعر الأخطل غياث بن غوث التغلبي. تح: د. فخر الدين قباوة. دار دمشق: الفكر المعاصر(1971). ص: 491، 492

15 السكري: شعر الأخطل، ص: 492

16 السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: تاريخ الخلفاء. تح: حمدي الدمرداش، القاهرة: مكتبة نزار مصطفى الباز، (2004). ص: 167

17 الرقيق القيرواني، أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق النديم: قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور. المكتبة الشاملة، ص: 94

18حسين، طه: حديث الأربعاء، القاهرة: دار المعارف. الطبعة الرابعة عشرة، د. ت، 2/ 78

19 الفاخوري، حنّا: الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم. بيروت: دار الجيل، (1986)، ص: 476- 477

20 السكري: شعر الأخطل، ص: 460

21 السكري: شعر الأخطل، ص: 494

22 السكري: شعر الأخطل، ص: 383

23 الثعالبي، أبو منصور: فقه اللغة وسر العربية، تح: عبد الرزاق المهدي. بيروت: إحياء التراث العربي، (2002). ص: 189

24 السكري: شعر الأخطل، ص: 584

25 السكري: شعر الأخطل، ص: 127- 129

26 السكري: شعر الأخطل، ص: 144

27 السكري: شعر الأخطل، ص: 20- 24

28 السكري: شعر الأخطل، ص: 543

29 السكري: شعر الأخطل، ص: 201

30 السكري: شعر الأخطل، ص: 272

31 السكري: شعر الأخطل، ص: 502

32 السكري: شعر الأخطل، ص: 456

33 السكري: شعر الأخطل، ص: 23

34 السكري: شعر الأخطل، ص: 128- 129

35 السكري: شعر الأخطل، ص: 129

36 السكري: شعر الأخطل، ص: 424-425

37 السكري: شعر الأخطل، ص: 502

38 السكري: شعر الأخطل، ص: 20- 24

39 السكري: شعر الأخطل، ص: 127- 129

40 السكري: شعر الأخطل، ص: 272

41 السكري: شعر الأخطل، ص: 560

42 السكري: شعر الأخطل، ص: 74

43 السكري: شعر الأخطل، ص: 119

44 السكري: شعر الأخطل، ص: 522

45 السكري: شعر الأخطل، ص: 521

46 السكري: شعر الأخطل، ص: 74

47 السكري: شعر الأخطل، ص: 486

48 السكري: شعر الأخطل، ص: 201

49 السكري: شعر الأخطل، ص: 425

50 السكري: شعر الأخطل، ص: 486

51 السكري: شعر الأخطل، ص: 537

52 السكري: شعر الأخطل، ص: 20- 24

53 السكري: شعر الأخطل، ص: 201

54 السكري: شعر الأخطل، ص: 503

المصادر والمراجع:

1. البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين: **التذكرة الحمدونية**. بيروت: دار صادر. (1417هـ)
2. البغدادي، عبد القادر بن عمر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**. تح: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي. (1997)
3. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد: **فقه اللغة وسر العربية**، تح: عبد الرزاق المهدي. بيروت: إحياء التراث العربي. (2002)
4. الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: **الشعر والشعراء**، القاهرة: دار الحديث. (1423هـ)
5. الرقيق القيرواني، أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق النديم: **قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور**. المكتبة الشاملة.
6. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي: **الأعلام**. بيروت: دار العلم للملايين. (2002)
7. السكري، أبو سعيد: **شعر الأخطل** غياث بن غوث التغلبي. تح: د. فخر الدين قباوة. دار دمشق: الفكر المعاصر. (1971)
8. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **تاريخ الخلفاء**. تح: حمدي الدمرداش، القاهرة: مكتبة نزار مصطفى الباز. (2004)

9. العباسي أبو الفتح: **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**. تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: عالم الكتب. د. ت

10. الفاخوري، حنّا: **الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم**. بيروت: دار الجيل. (1986)

11. المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى: **الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء**. القاهرة: المكتبة السلفية. (1343هـ)

12. حسن عباس: **النحو الوافي**، الطبعة الخامسة عشرة، القاهرة: دار المعارف. د. ت

13. حسين، طه: **حديث الأربعاء**. القاهرة: دار المعارف. الطبعة الرابعة عشرة، د. ت

14. عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: **السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي**. القاهرة: دار السلام. (1428هـ)

15. هوتسما، أرنولد وآخرون: **موجز دائرة المعارف الإسلامية**. إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد وآخرين، الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري. (1998)